وهل عنّ لغاندي غداة توجّه إلى الهيكل لملاقاة ربّه في الصلاة أنّه كان يتوجّه لملاقاة الرصاصات الأثيمة التي تركته جثّة بغير حياة؟

هذا وشل من بحر من الأمثلة التي حفل بها التاريخ عن أفراد وجّهوا كلّ قواهم إلى غايات بعينها فما أدركوها وأدركوا عكسها، أو أدركوا ما كان خيراً منها لا عن قصد منهم وتصميم، ولا نتيجة لتوجيه وتنظيم، بل برغم المقاصد والتصاميم، وبرغم التوجيه والتنظيم.

ولماذا؟

لأنّ فوق إرادة أي إنسان وأي شعب إرادة الإنسانيّة كلّها. وفوق إرادة الإنسانيّة إرادة الأرض التي من لحمها ودمها تقتات الإنسانيّة. وفوق إرادة الأرض إرادة المسكونة التي ليست الأرض سوى عضو صغير من أعضاء جسدها الجبّار.

وأنا من غير أن أدخل وأدخلكم في جدال قديم عقيم عن الحرية والقدرية أريد أن أحدثكم بكلّ تواضع عن شعور قويّ، عميق، لازمني منذ حداثتي بأن يداً خفيّة تسند يدي، وفكراً مجهولاً مني يلهم فكري، وإرادة محجوبة عني تدعم إرادتي. وسأكشف لكم أحداثاً بسيطة من حياتي